# استهلال

يتناول هذا الكتاب بعداً من أبعاد المستقبل وإن كانت موضوعاته تدور فيما مضى من الزمان ، ذلك لأن تاريخ التربية إنما هو فى حقيقة الأمر محاولة لاستكشاف قضية هامة وهى : كيف كان الناس يتصورون المستقبل ، وكيف كانوا يتحسبون له ويعدون العدة من أجله من خلال عملية التربية . ويرجع هذا إلى أن التربية مرتبطة بالمستقبل دائماً ، سواء فطن المربون إلى ذلك أو لم يفطنوا ، وسواء كان المستقبل شبيهاً باللحظة الحاضرة أو مختلفاً عنها إختلافاً بيناً ، ومن ثم يختلف حظ التربية من النجاح والإخفاق حسب قدرتها على قراءة المستقبل ، وإبتكار الوسائل لمواجهته والسيطرة على أحداثه.

وإذا قيل « إن الإنسان حيوان له تاريخ » ، بمعنى أنه يتميز عن سائر المملكة الحيوانية بأنه قد تطور تطوراً ثقافياً وحضارياً ولم يقتصر تطوره على النواحى البيولوجية فحسب ، فربما لا تكتمل تلك الخصيصة الجوهرية التى تميز الإنسان إلا إذا قلنا إن الإنسان حيوان له تاريخ ، وله مستقبل أيضاً ، لأن الانسان لم يتكون مرة واحدة وإلى الأبد ، « وطبيعته » لا تتكون من مجموعة إنجازاته وحسب ، وإنما هو فى حالة صيرورة دائمة ، إنه مجموعة إنجازاته الماضية مضافاً إليها مجموعة مشروعاته وخططه للمستقبل . وبغير هذه الحالة من التطور المستمر يغدو التاريخ الإنسانى بلا معنى ، ويصبح مجرد وصف لما هو واقع هنا والآن يوماً بيوم ولحظة بلحظة ، ولا تزيد قيمة أحداثه عن كونها تجارب عفوية حدثت ومضت وانقضت ، لا يربط بين سابقها ولاحقها رباط أو تجمع بينها صلة .

والكشف عن التطور فى التاريخ يحدو بالمرء إلى أن يفكر : ثم ماذا بعد ؟ ما نهاية المسيرة ؟ هل يرقى الإنسان الذرى إلى غايات متسامية تباعد بينه وبين الحيوان بمسافة أطول ، وبالتالى تباعد بينه وبين الإنسان الأول فى سلم

تطور مفتوح مازالت مدارجه العالية مجهولة ؟ أم أن الإنسان ينحدر فى الحقيقة إلى هوة تغيب عنه أغوارها ، ويسير بظهره إلى درك أسفل بينما يظن أنه مندفع إلى أمام ، والإجابة شغلت الكثير من فلاسفة التاريخ والمفكرين بما يملأ مجلدات ضخمة ، وتفرعت الإجابة شعبتين ، تضم شعبة منها أولئك المتفائلين الذين يحسنون الظن بالإنسان ومستقبله ، وتضم الشعبة الأخرى أهل التشاؤم الذين أعياهم البحث عن المعنى ورأوا فى نهاية الطريق ركاماً من العبث .

**تفاؤل وتشاؤم :**

أما المتفائلون ، فقد بدأ تفاؤلهم منذ استطاع الإنسان الكشف عن بعض القوانين الطبيعية التى تحكم العالم المادى ، ومن ثم بدا أن الإنسان قادر على أن يسخر الطبيعة ويستنبط مواردها بما لم يتح له من قبل بحيث تزداد سعادته ورفاهيته المادية . وفى الوقت ذاته حاول العلماء أن يكشفوا الغطاء عن قوانين العالم غير المادى ، عالم الإنسان وفكره وعواطفه وسلوكه ، وتوصلت كشوفاتهم إلى نتائج بدت مبشرة . وإذا أستطاع الإنسان أن يسيطر على عالمه بشقيه المادى وغير المادى فمعنى هذا أن غده سوف يكون أحسن من يومه وأمسه ، وأن الحلم القديم الذى كان يراوده عن عالم طوباوى أفضل سوف يتحقق كلما زاد علماً ومعرفة ، وهذا ما يعطى لتلك المسيرة الوعرة للتاريخ معناها .

أن النضال والاجتهاد وتحمل العذاب كان له ثمر ، ولا يستبعد أن يتطور الإنسان مع تقدم العلم والتكنولوجيا إلى صورة غير الصورة التى نعرفها اليوم ، ربما صار أكثر عقلانية فيكبر رأسه ، وتضمر الأجزاء التى لم يعد فى حاجة إلى استعمالها فى جسمه ، ويصير أكثر قدرة على الاستمتاع بمنجزات العلم فى وقت فراغ طويل ... يقول الله تعالى « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » صدق الله العظيم . فأبحر العلم واسعة عميقة وقد غمرت مياهها مجرد الأقدام .

وأما المتشائمون ، فهم يرون الواقع الإنسانى كله واقعاً باثساً ، لأنه مهما أبتكر من منجزات فسيظل أسيراً لحيوانيته ، والدليل : تلك الحروب الضروس التى يفجرها بنفسه - وكأنما لا تكفيه كوارث الطبيعة - مستخدماً فيها ما ابتكر عقله وصنعت يداه من منجزات العلم والتكنولوجيا . وذلك العداء الذى يبدو متأصلا بين الإنسان وأخيه الإنسان الذى تراق بسببه الدماء كل يوم أوربما كل ساعة فى حروب جماعية أو صراعات فردية . وإذا كان الجزء الواعى فى الإنسان قد نما فإن نموه لا يعد شيئاً ذا أهمية إلى جانب الجزء غير الواعى فيه ، إنه ليس ذلك الكائن الذى تقوده عواطفه النبيلة ويهديه عقله المدبر ، بل هو كائن تحكمه المصالح وتدفعه الأهواء ، وتلك نقطة يعرفها الساسة دائما ، ولهذا تظهر بين حين وآخر دكتاتوريات عاتية تدفع بالشعوب إلى حافة الهلاك وهى تنشد الأغانى الحماسية بروح القطيع الذى تسيطر عليه غرائزه ، وبالتالى فإن الجانب الأكبر والأهم فى التاريخ لايتمشى فيما أبدع الإنسان فى معارج الرقى ، ولكنه يتمثل فى واقع الأمر فى جهالات الإنسان وما يرزخ تحته من أثقال وما يغله من قيود ، ومستقبل مثل هذا الكائن الذى يسيطر لاوعيه على وعيه ، وفى يده طاقة هائلة من النيران يلعب بها ، لايمكن أن يكون مبشراً بخير ، ذلك لأنه افتقد جذوة عاتية تسنده وتوجهه ... افتقد قيما إيمانية نبيلة ، فبدأ يفقد نفسه . أى المستقبلين يمكن أن نتوقع إذن للانسان ؟

الحقيقة أن مثل تلك الأفكار ليست أفكاراً لاهية أو محاولة من جانب من يفكر فيها تقمص شخصية المتنبىء وكأنما قد وقعت مقادير البشر بين يديه ، لكنها توقعات يمكن أن تفيد فى توجيه المسار والتحكم فيما يبدو لنا مجهولا لنكون أقل جهلا به . حتى يحلم الإنسان بما هو آت ولا تنقلب أحلامه أوهاما يخادع بها نفسه ليعرضها عن واقع مجدب ينتظره فى باطن الغيب . وإذا تركنا وردية التفاؤل أو قتامة التشاؤم فلنا أن نحكم بأن ثمة خطاً مطرداً واكب مسيرة الجنس البشرى رغم ما يبدو من تداخل

الخطوط وتشوشها ، هنالك انتظامات وسط زخم الفوضى التى تشتت الانتباه فعلى أقل تقدير لم يعد العمل الإنسانى سخرة كما كان فى العالم القديم ، والحوار المنشآت فى البحر تدفعها محركات جبارة تسير بمختلف أنواع الطاقة بدلا من سواعد العبيد الذين تلهب ظهورهم سياط الحلادليسرعوا التجديف . ولايضيع العالم وقته وينفق جهده اليوم فى حساب معادلة رياضية ، إذ يكفيه أن يلمس بأصبعه مجموعة أزرار فى آلة حاسبة صغيرة ليصل إلى الحل . ولا تقطع أنفاس حمامة تنقل رسالته أو ترسل فى طائرة بل تصل الرسالة دقيقة إلقائها .. وأفكار مثل الكرامة الإنسانية والديمقراطية وحقوق الأفراد . لم تعد منحة من قوى لضعيف ، بل هى أفكار تحولت إلى سلوك فى كثير من الأحيان ، والمطالبة بها أو الإصرار عليها قد أصبح غذاء يوميا للناس . بل إن التاريخ نفسه كعلم يتجه فى العصور الحديثة إلى أن يكون تاريخ شعوب ، وكأنما الشعوب كشفا من الكشوف الحديدة لم يكن موجودا من قبل . وإذا قلبنا النظر هنا وهناك لأستطعنا أن نجمع الكثير من الشواهد على أن ثمة تحسناً ملموساً فى كثير من مجالات الحياة فى عالمنا المعاصر أكثر مما كان فى العصور الوسطى ، ومن قبل فى العصور القديمة ، ثم ما خلا ذلك من عصور مما يعنى أن المستقبل ملىء بمزيد من إحتمالات التقدم .

لكن التقدم لن يحل من تلقاء ذاته ، إنه يحتاج إلى قوة واعية تدفعه وتشكله وتحدد له الهدف . والتربية تحتل المكانة الرئيسة فى هذه القوة . والتربية كذلك لن تستطيع أن ترسم المستقبل وتحدد خطوطه وتعمل لمواجهته من تلقاء ذاتها ، لأنها ليست قوة خارجة عن إرادة الإنسان ، وإنما هى ظاهرة من صنع الإنسان ، ومع هذا فمن الضرورى أن تكون لها مواصفات خاصة مصممة عن وعى وتبصر فى أهدافها ومحتواها وصيغها ووسائلها ، لأنه إذا أريد تمديد خط التطور المطرد فى تقدمه فى التاريخ الإنسانى فإن هذا يعنى بذل الجهد فى عملية الإنتقاء ، ماذا نتخير وماذا ندع ؟ ماذا نريد من الماضى والحاضر ؟ وماذا نغفل ؟ على أى خلق وقيم نريد

الإنسان الذى خلقه الله فى أكمل صورة وكيف نحقق كل هذا ؟ ما العوامل المواتية لتحقيق أهداف التربية وما العوامل المعوقة ؟ ما صورة المستقبل الذى ستعمل فيه التربية والذى نعد له هذا الإنسان ؟ وتلك كلها أسئلة ربما كانت تبدو بسيطة فى العصور القديمة وإلى زمن قريب حين كان إيقاع الحياة رتيباً وقوى التغيير أضعف كثيراً من قوى المحافظة . وربما يرى البعض أن لكل زمن مشاكله وإن بدت لنا اليوم بسيطة فكانت فى وقتها شديدة الصعوبة والتعقيد . إن فى عالم اليوم سباق الإنسانية للمحافظة على بقائها أمام قوى الدمار . هو سباق لا هوادة فيه فعلا لامجازاً . وقوى الدمار لا تكمن فى الواقع الموضوعى الذى يحيط بالإنسان من أدوات الحرب والفناء فحسب ، بل هى كائنة أيضاً فى واقعه الإجتماعى المعنوى وفى داخله هو نفسه . ولم تتحقق إلى اليوم أحلام بعض الفلاسفة الوردية فلا يوتوبيا صارت ولا صار العدل والقسطاس ولا الحق ولا عم الخير ولاساد الجمال : بل هى أنهار من الدم القانى وملايين العيون الزائغة والوجوه الكالحة والبطون الخاوية والأمراض المستشرية وسط الأنقاض — ويعيش البعض فى رغد وبحبوحة يمرحون راضين فى سعادة أجلها محتوم ، ويأليتهم يعلمون . . فقد تبخرت أخوة الإنسان الذى نسى فى زحمة الذرة والاليكترون واللزر شريعة الله . وتصور الإنسان أنه بما أخترعه ، قد أرتفع عن مستوى كونه إنساناً . يرى الكاتب أن العكس صحيح وأن ذلك الإنسان ضائع فى آفاق الأمس بعد أن أفتقد طعوماً طبيعية وليست زائفة . وحضارة اليوم تحمل بذور هلاك الإنسان بما تروجه من سموم يتعاطاها مغلفة ومعلبة فى أشكال جميلة تغرى بأن يفسد الإنسان صحته الجسمية والعقلية بنفسه ، وهى أيضا بما تتيحه من راحة للانسان مغرية له بأن يبتعد عن القيمة الأصيلة التى بنت الحضارة ، وهى قيمة العمل الشاق الجاد ، وتسلقه إلى قيم مفسدة مثل الترف واللهو والفراغ . إن الإغراق فى تحقيق المنجزات المادية قد يقطع بين الانسان وبين قيم عاطفية وروحية كانت سبباً فى

استمرارية الجنس البشرى فى مسيرته المتقدمة حتى الآن ، وقد تجعله ينظر هازئاً إلى كنوز الحكمة التى تراكمت عبر المسيرة على أساس أن ما أبدع الإنسان من فن وأدب ومعرفة لا يؤدى إلى نتائج عملية مباشرة .

وهكذا فإن عوامل الدمار فى المستقبل قائمة جنبا إلى جنب مع عوامل الازدهار . والتنبه إلى كلا المجموعتين من العوامل يدعونا إلى دراسة تاريخ التربية برؤية مستقبلية ، لنتبصر فيم نجحت وفيم اخفقت ، وما العوامل التى أدت إلى نجاحها أو إخفاقها ، وهل استطاع القائمون عليها التكهن بالمستقبل والتربية من أجله ، أم وقع لهم المستقبل وكأنه كان شيئاً مجهولاً تماماً وحط فجائياً ....

**التاريخ والمستقبل :**

ولقد يقال إن الشعوب النامية مشدودة دائماً إلى الوراء تنظر إلى حاضرها ومستقبلها بعين الماضى ، متصورة أن العصور ( الذهبية ) قد حدثت وانتهت ، ومهمة التربية فيها العودة إلى مثل تلك العصور ( الذهبية ) . وهى لا ترى تمديداً للتاريخ ودفعه إلى أمام ، أو تصور إمكانات المستقبل الذى يمكن أن يعضد العصور ( الذهبية ) الغابرة . وإن كان فى هذا القول شىء من الصواب إلا أن ذلك لا يعنى أهمال الماضى ، لأن الشعوب التى لا ماضى لها لا هوية لها . ولكن من الضرورى توظيف هذا الحل التاريخى المتزايد لدى الشعوب ذات التاريخ العريق ليكون نبراساً للمستقبل حتى لا تضل الطريق ، من منطلق أن التطور ليس قفزات أو إنقلابات ، لكنه عمل علمى مدروس مرسوم ، أساسه المحافظة على وحدة الإنسان فى بعده الماضى والحاضر والمستقبل . ومن هنا يبرز الاهتمام بدراسة المستقبل إلى جانب التاريخ دراسة متخصصة ، دراسة المستقبل كعلم لا كمجرد تخمينات أو تكهنات . وإذا كان الشعب العربى يعيش حاضره وتاريخه معه يشكل هذا الحاضر إلى أبعد حد ، فإنه يجب أن يعيش حاضره ومستقبله أيضاً معه ليوجه الحاضر . والدعوة إلى علوم المستقبل ينبغى أن يكون مجالها فى منطقتنا العربية مجالاً كبيراً .

ولنا المثل فى ذلك فيما صدر من أعمال فكرية عن المستقبل عامة ، وفى التربية بوجه خاص ، وفيما يدرس من مقررات دراسية عن المستقبل فى بعض الجامعات والمدارس فى العالم المتقدم ، وهناك يدربون طلابهم على تخيل أشكال المستقبل وحسابه فى ألعاب جادة مثل ألعاب المحاكاة والقصص الخيالى العلمى وفى دراسات ما يسمى « نظرية المعلومات » « ونظرية الاحتمالات » وغيرهما . وانشئت بعض المراكز للخيال العلمى ( جامعة بافالو بالولايات المتحدة ) طُبقت التقنيات التى استخدمت فيها فى شتى مجالات المعرفة من العلوم الطبيعية إلى العلوم الاجتماعية . وهم يعلمون الفرد كيف يمكن أن يواجه المستقبل سريع التغير باحتمالاته الطيبة والسيئة . وإن كان قد كتب علينا الفترة من الزمن أن نحاكى العالم المتقدم فتلك دورة الحضاره . ولاضرر ولا ضرار من تلك المحاكاة إن لم تكن عمياء سطحية . لنا أن نأخذ منهم تقنياتهم فى التفكير فى المستقبل ، لكن مستقبلنا نحن بتاريخنا نحن ، بتفاؤلنا أو تشاؤمنا نحن ، لأن علوم المستقبل مثلها مثل العلوم الاجتماعية الأخرى ، إن كانت تستخدم فيها تقنيات مقننة مضبوطة ، إلا أن أساسها فيه الكثير من ذاتية الباحثين وقدرتهم على التحليل والتركيب والنظرة المثقفة الشاملة الواعية ، والارتباط بالقيم الثقافية الأصيلة . ذلك ليكون التاريخ موصولا بالحاضر والمستقبل مما يعطى الإنسان إحساساً بالاستقرار فى خضم الأمواج العاتية التى تتقاذف حضارة الإنسان .

ولعل فى هذا الكتاب دروساً من التاريخ تجعلنا أكثر بصراً بالمستقبل ، وتربية المستقبل . وتجعل القصة موصولة بأبطالها البشر وما فيهم من نزعات خيرة وأخرى شريرة والأرض التى يعيشون عليها تسقى أحيانا بعرقهم وأحيانا بدمائهم وأحيانا بماء من السماء ينبت زرعاً يؤتى أكله بإذن الله ... والناس يولدون ويعيشون ثم يموتون ... والشمس دائماً تشرق وتغرب كل يوم على كوكب الأرض وأين هو فى الكون الهائل ...؟